

الأبعاد الوظيفية للعلامات الثقافية في رسائل الإمام
علي (عليه السلام) والمحكم القصاصي في نهج البلاغة

Functional Scopes of Cultural Signs in the Letters of
Imam Ali and the Aphoristic Judgments in the Road
of Eloquence

أ.د. كريمة نوماس المدني
م.د. مرتضى شناوه فاهم العرداوي

Prof. Dr. Kareema Noomas Akl-Madani
-Lectur. Dr. Murtadha Shanawa Faham Al

الأبعاد الوظيفية للعلامات الثقافية في رسائل الإمام
علي (عليه السلام) والحكم القصار في نهج البلاغة

Functional Scopes of Cultural Signs in the
Letters of Imam Ali and the Aphoristic
Judgments in the Road of Eloquence

أ.د. كريمة نوماس المدني
جامعة كربلاء / كلية التربية للعلوم الإنسانية / قسم اللغة
العربية

م.د. مرتضى شناوه فاهم العرداوي
جامعة الكوفة / كلية الفقه / قسم اللغة العربية

Prof. Dr. Kareema Noomas Akl-Madani
University of Karbala / College of Humanist
Sciences / Department of Arabic

Lectur. Dr. Murtadha Shanawa Faham Al-
Ardawi University of Kufa / College of Faqah /
Department of Arabic

dr_kareema16@gmail.com
lewaah.al-aeshea@uokufa.edu.iq

تاريخ التسليم: ٢٠١٩/٣/١٧

تاريخ القبول: ٢٠١٩/٨/٤

خضع البحث لبرنامج الاستئلال العلمي
Turnitin - passed research

ملخص البحث

يعد البعد الوظيفي للعلامات من المرتكزات الأساسية في مفهوم الدراسات السيميائية إذ يُمثلُ هذا الاتجاه الرؤى والمنطلقات الفكرية لكل من الاتجاه الايطالي المتمثل بالناقد (أمبرتو إيكو) وكذلك الاتجاه الروسي الذي يتزعمه أقطاب (مدرسة تارتو)، إذ يرى كل من أصحاب هذين الاتجاهين أنَّ الثقافة تُشكل أنموذجاً متواصلاً للمعرفة البشرية في داخل الحيز العلاماتي، ومن هذا المنطلق فإنَّ رسائل الإمام علي (عليه السلام) وحكمه القصار وما فيها من علامات قد أسهمت في إنتاج أبعاد ذات وظائف ثقافية مختلفة، لأنَّ الإمام (عليه السلام) يمتلك منظومة ثقافية متكاملة أسهمت بدورها في تجسيد دلالات فكرية لدى المتلقي.

Abstract

The functional scope of signs is regarded as one of the essential principles to the concept of the semiotic studies as it designates visions and intellectual vantage points to the Italian trend , the critic Ambrto Echo, and the Russian one , Tarto School . For these two trends the culture is a concomitant example of the human knowledge in the semiotic orbit . As such the letters of Imam Ali and his aphorism contribute to scopes with various cultural functions , since Imam Ali (Peace be upon him) has a complete cultural system granting the interlocutor intellectual semiotics .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الأكرم محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين الى يوم الدين.
وبعد

تمثل الثقافة طبيعة السلوك البشري للفرد داخل الحيز الاجتماعي الواحد، والوظيفة الأساسية لها هي التنظيم المفسر للعالم المحيط بالكائن البشري؛ لما تملكه من قدرة في ترسيخ الأسس الحياتية داخل المجتمع البشري، ومن هذا المنطلق فإن علم العلامات قد أسهم في تحقيق التواصل الثقافي داخل المجتمعات البشرية على مر الأزمان؛ لما تمتلكه من القدرة والقابلية على فك الشفرات التوافقية داخل الخطاب، والمتأمل في رسائل الإمام (عليه السلام) وحكمه القصار سيجد توافر العلامات الثقافية بشكل مبثوث داخل تلك النصوص المباركة والتي تجسد الحقيقة العلوية في التعامل مع الولاة والحكام والطبقات المجتمعية المختلفة ومن هذا المنطلق جاء عنوان البحث (البعد الوظيفي الثقافي للعلامات في رسائل الإمام علي (عليه السلام) والحكم القصار في نهج البلاغة) فقد عزمنا على الخوض في هذا المضمار والتصدي لهذه العملية النقدية في ميدان هذه النصوص التراثية لما لهذه النصوص من أهمية كبيرة في حياتنا الحالية والمستقبلية، فهي بحق تعد دراسة جديدة في هذا المجال المفاهيمي الحدائثي.

وقد اقتصرنا في دراستنا لهذا الموضوع على بعض النصوص التي حملت تلك الرؤية العلاماتية الثقافية بما يتناسب وطبيعة البحث، وسلكنا منهجاً تحليلياً واشتملت الدراسة على تقنيتين من التقنيات التي تسهم في تحقيق البعد الوظيفي الثقافي للعلامات، يسبقها توضيح لمفهوم الثقافة وطبيعة علاقتها بعلم العلامات، وبعدها خاتمة.

فقد درسنا في المطلب الأول البعد الوظيفي الثقافي بلحاظ الفضاء المفتوح، أما التقنية الأخرى فقد جاءت بلحاظ الفضاء المغلق، وقد جاءت الخاتمة بأهم ما توصلنا إليه من نتائج.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العلمين.

التمهيد: مفهوم الثقافة وعلاقتها بعلم العلامات .

يتسع مفهوم الثقافة كلما تطور الإنسان؛ لأنه كائن ثقافي يمتاز برجاحة عقله وانفتاحه على مختلف الميادين المعرفية، وقد تمثلت صيرورة الأنسنة التي انطلقت منذ القدم من تأقلم وراثي مع المحيط الطبيعي إلى تأقلم ثقافي^(١).

فإدراك الإنسان للعالم إدراك تبرجه الثقافة بوساطة أنساقها الدالة اللفظية أو غير اللفظية، التي تؤطر فعل الإنسان وممارسته الاجتماعية، وبهذا تكون الثقافة نسقاً يشمل: اللغات الطبيعية، والاصطناعية والفنون والديانات والطقوس... الخ^(٢)، إذ يعرفها تايلور بقوله: ((هي ذلك الكل المتكامل الذي يشمل المعرفة، والمعتقدات والفنون والاخلاقيات والقوانين والأعراف والقدرات الأخرى، وعادات الإنسان المكتسبة بوصفه عضواً بالمجتمع))^(٣).

وعليه فهي قادرة على توحيد الظواهر الإنسانية المتنوعة والمختلفة سواء أكان هذا التنوع وهذا الاختلاف يقعان في الزمان أم المكان، فهذه الظواهر تمثل أنساقاً من العلامات كيفما كانت طبيعة النسق (كلام، موضوعات، سلع، أفكار، قيم، أحاسيس، إيماءات) فهي الطريقة التي يتم بها تفكيك النسق، داخل ظروف تاريخية وانثروبولوجية بعينها، ضمن حركة تمنح المعرفة بعداً موضوعياً^(٤).

وينص البعد الوظيفي الثقافي للعلامة على اعتبار الثقافة من الموضوعات التواصلية والأنساق الدلالية التي يوحى للمتلقي ببعض الإشارات التي تفسر الجوانب المعتمدة من النص، ومن ثم فهي آلية من الآليات التي تحول الفوضى إلى نظام وإلى جانب ذلك ((هي مجموعة من الأنظمة السيميائية متفتحة بين الماضي والحاضر ومتفتحة على الثقافات الأخرى))^(٥).

وقد تبني هذا البعد الوظيفي كثير من العلماء والباحثين أمثال: لوتمان (Lotman) وفلاديمير تودوروف (Toporov) في روسيا، وأمبرتو إيكو في إيطاليا وغيرهم^(٦).

فالثقافة كما يرون تنشأ كُلمًا تحولت أية وظيفة بصفة آلية إلى علامة لهذه الوظيفة، فيقول إيكو: ((إنّ الثقافة تقوم بانتقاء بعض الظواهر، فتسند إليها وظيفة دلّائل في الوقت الذي تبلغ فيه شيئاً ما في شروط ملائمة))^(٧).

ومن ثمّ فالثقافة تشكل نموذجاً متوَصِّلاً للمعرفة البشرية والتفاعل البشري في الحيز العلاماتي(٨)، ومن هذا المنطلق حاول الدكتور سعيد علوش أن يربط العلامة بالثقافة بأنها دراسة لكل المظاهر الثقافية اعتماداً على افتراض تلك المظاهر كأنظمة علامات في الواقع^(٩).

إنّ متبنيات العلامة الثقافية والبعد الوظيفي لها قد انبثق بشكل رئيس من الفلسفة الماركسية، التي تعدّ الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية وأساساً دلالية، وما الثقافة في نظر أصحاب هذا البعد إلاّ إسناد وظيفة للأشياء الطبيعية وتسميتها، وهي بذلك تكون مجالاً تواصلياً تنظيمياً للإخبار في المجتمع الإنساني^(١٠).

وهناك من يعزو هذا المنحى الوظيفي للعلامة إلى إسهامات جماعة موسكو، إذ ترى تلك الجماعة ((إنّ المفهوم الأساس لعلم السيمياء هو النص، ومفهوم النص لا يعني لديهم الرسالة اللغوية فقط، وإنّما كل ما يحمل معنى متكاملًا (احتفال - عمل فني... الخ))^(١١).

فالثقافة قد تكون نصاً شعرياً أو نثرياً أو جزءاً من نص أو مجموعة كاملة من النصوص، وذلك بحسب الشيفرة التي تحدد علاقة الثقافة بالنص وعلاقة النص بالثقافة^(١٢).

ومن ثمّ فإنّها وسَّعت من دائرة إنتاج العلامات وأبعادها الوظيفية، ويرى هؤلاء أيضاً أنّ جميع مظاهر الكون ومخلوقاته ومنتجات الإنسان تحفل بالعلامات والرموز الدّالة التي تندرج على وفق أنظمة كليّة متعددة ومتقاربة قادرة على توحيد الظواهر الإنسانية المتنوعة^(١٣).

ويتجسد البعد الوظيفي الثقافي للعلامة عبر منظورين: الأول يتجسد بلحاظ الفضاء المفتوح والثاني بلحاظ الفضاء المغلق^(١٤).

ومثال على ذلك يعد بناء المساجد ثقافة لكل المسلمين، وبناء الكنائس ثقافة لكل المسيحيين، فلكل واحدٍ من هؤلاء ثقافته التي ينظر من خلالها إلى نظيره ولا يتفق معه ثقافياً، وهذا ما يطلق عليه ثقافة ذات فضاء مغلق، بيد أن من ينظر إلى دور العبادة بشتى أنواعها مجتمعةً (مساجد- كنائس - معابد) بمنظار واحد، تعد ثقافة ذات فضاء مفتوح.

وعند النظر والتأمل في رسائل الإمام (عليه السلام) وحكمه القصار، نلاحظ أن العلامات قد أسهمت في إنتاج أبعاد ذات وظائف ثقافية متميزة؛ لأن الإمام علي (عليه السلام) يمتلك منظومة ثقافية متكاملة ذات فضائين، أحدهما: مفتوح، والآخر مغلق، وهذا ما نلاحظه في توظيفه لتلك المضامين في خطابه كلاً بحسب طبيعته، أي بحسب طبيعة المرسل إليه كما يأتي:

المطلب الأول: الوظيفة الثقافية بلحاظ الفضاء المفتوح.

وفي هذا المجال تكون الثقافة واللائقافة نظاماً واحداً، ويشترط فيها الانفتاح والتعايش والتواصل^(١٥).

ومثال ذلك: تعدد الأديان في الهند، فكل واحدة منها تعد نفسها ثقافة، وما يقابلها ثقافة مغايرة، في حين أن تعدد أديان الهند في حد ذاتها تعد ثقافة للعالم الخارجي. ومن مصاديق الوظيفة الثقافية للعلامات ضمن هذا الفضاء في رسائل الإمام (عليه السلام) ما جاء في كتابه إلى عبد الله بن عباس عامله على البصرة فقال: ((وَقَدْ بَلَّغَنِي تَمْرُكُ لَبْنِي تَمِيمٍ، وَغَلَطْتُكَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخَرٌ))^(١٦).

يحث الإمام عامله على التعامل الحسن المبني على الاحترام والتواضع مع القبائل ذات السيادة، والإرث التاريخي المتوافق مع الإسلام، ومنها تميم؛ لأنهم يحظون بثلاث خصال: ((أحدهما: أنه لم يمت منهم سيدٌ إلا قام لهم آخر منهم مقامه، ... والثاني: أنهم لم يسبقوا بوغمٍ في جاهلية ولا إسلام، يعني أنهم كانوا أهل بأس وقوة وشجاعة وحمية في الجاهلية والاسلام ... الثالث: أن لهم رحماً ماسة وقرابة خاصة لأن نسب كل واحد من بني هاشم وبني تميم ينتمي إلى ياس بن مضر))^(١٧). فالإمام أراد أن يوحى لعامله من جهة، وعامة الناس من جهة أخرى، أن قبيلة تميم هي موطن للشجاعة والظهور المستمر لرجالها، فقله: ((عليه السلام)) (إن بني تميم لم يغب لهم نجم إلا طلع لهم آخر) دال، مدلوله: أنهم لن يتوقفوا عند حد معين فهم مورد للظهور القيادي المستمر، وهذا التوافق شكل علامة أسهمت في انتاج وظيفة ثقافية ذات فضاء مفتوح، مفاده أن بني تميم قد اشتهروا بحسن السيرة والسيادة حتى بات صيتهم معروفاً لدى الجميع.

فمعرفة الإمام الواسعة في تاريخ القبائل وانفتاحه عليهم وتواصله معهم أسهم في إنتاج ثقافة أفقية (زمنية)، وهذا يدل على ثقافة الإمام (عليه السلام) المستمرة المتواصلة على طول الأزمان، وقد تولد هذا المعنى لدى المتلقي من خلال لفظ (النجم) الذي يدل على الظهور المستمر.

وتأسيساً على ذلك نقول: إنَّ النتائج المعرفي الذي وظفه الإمام (عليه السلام) إلى المتلقي أسهم في ابلاغ ذلك المتلقي المدلول المراد، بناءً على تواشج العامل المعرفي بين الطرفين، ومن ثمَّ فقد شكّلت العلامة نظاماً واحداً يُجسد القيمة الحقيقية لبني تميم. وكذلك نجد البعد الوظيفي الثقافي للعلامة في كتابه (عليه السلام) إلى معاوية جواباً جاء فيه ((وَرَعَمَتْ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَعَيْتُ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونُ الْعُدْرُ إِلَيْكَ. وَتِلْكَ شِكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا))^(١٨).

في هذا النص تبلورت معالم البعد الوظيفي الثقافي من خلال توظيف الإمام (عليه السلام) لكلام الشاعر والمتمثل بقوله (وتلك شكاة ظاهراً عنك عارها). فلو تمعنا في الواقعة الثقافية لهذا النص سنجد أن الإمام قد وظف قول أبي ذؤيب الهذلي في الرد على معاوية، إذ قال الشاعر:

وعيرها الواشون أني أجبها... وتلك شكاة ظاهراً عنك عارها^(١٩)

ومن هذا المنطلق نقول: إنَّ اندماج النصين (الشعر و كلام الإمام) في بوتقة واحدة ولّد لدى المتلقي علامات ثقافية مشحونة دلاليًا، كرسّت بدورها معالجة لقضية مرحلية، مفادها: إبطال مزاعم معاوية وتكذيب ادعائه على الإمام (عليه السلام) المتمثل بعادته للخلفاء.

وبناءً على ما سبق نقول أيضاً: إنَّ انفتاح الإمام (عليه السلام) على الثقافات الأخرى (الشعر) وتوظيفها ضمن موضوع واحد، خلق نوعاً من التفاعل لدى المتلقي في قراءته لحيشات النص من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّ النصين شكّلا وحدة بنائية

أسهمت في رؤية ثقافية واحدة وهذا ما يطلق عليه بالنظام الثقافي الموحد. ومن كتاب له (عليه السلام) إلى أمراء البلاد في معنى الصلاة قال: ((أَمَّا بَعْدُ، فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ الشَّمْسُ مِنْ مَرْبِضِ الْعَنْزِ. وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيضاءَ حَيَّةً فِي عَضْوٍ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرَسَخَانِ. وَصَلُّوا بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، وَيُدْفَعُ الْحَاجَّ. وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ.))^(٢٠).

يبيِّن الإمام (عليه السلام) في هذا النص أوقات الصلاة المفروضة، إذ وضع لكلٍ منها معياراً يستند إليه الناس في تحديد تلك الأوقات المقدسة. وقد ميّز هنا (عليه السلام) بين هذه الأوقات تميزاً لا لبس فيه كما يأتي^(٢١):

الأول: صلاة الظهر وحدّها بوقت فيء الشمس وذلك فقد حدد الزمان بالمكان بقوله (مربض العنز) وهذا هو البعد الوظيفي للعلامة.

الثاني: صلاة العصر وحدّها بالشمس، وجعل علامة ذلك بيضاء لم تصفر للمغيب وحية.

الثالث: صلاة المغرب وحدّها بغياب الشمس وجعل علامة ذلك: إفطار الصائم، والإفاضة من عرفات.

الرابع: صلاة العشاء وحدّها بتواري الضياء أول الليل، وحدّ آخرها بثلاث الليل وجعل علامة ذلك تواري الشفق.

الخامس: صلاة الغداة وحدّها معرفة الرجل وجه صاحبه، وجعل علامة ذلك طلوع الفجر الثاني.

ولعلَّ هذه التحديدات الزمنية تقف بنا على نتيجة تتضح لنا من خلال الألفاظ التي وردت في النص والمتمثلة بقوله: (مريض العنز، بيضاء حية، فرسخا، يتواري الشفق، معرفة الرجل وجه صاحبه)، إذ يوجد لكل واحد منها مدلولاً فطرياً منذ القدم، ولما جاء بها الإمام (عليه السلام) ضمن سياق تحديد أوقات الصلاة وأبسها دلالات طقوسية جديدة، حتى باتت تشكل ثقافة عامة لدى المسلمين، أصبحت علامات ذات أبعاد ثقافية تؤسس لمفهوم جديد، فهذه التحولات الفطرية واكتساب الألفاظ دلالات طقوسية ولدت لنا مدلولات علامتية ثقافية.

وإذا نظرنا إلى تلك الألفاظ التي أشرنا إليها سابقاً من وجهة المنظومة السيميائية الثقافية، نقول: إنَّها دوالٌ لمدلولات جديدة أسهمت في تحديد أوقات الصلاة، وشكلت فيها بعد نظاماً متعارفاً لدى المسلمين.

ولعلَّ هذا الطرح ينسجم مع الرؤية التي انبثقت من اتباع العلامات الثقافية الذين يرون أن الثقافة تسهم في ترسيخ النظام الاجتماعي والديني في المجتمع وتجعل منه أفقاً مفتوحاً يستوعب كل الثقافات الأخرى بما يحقق الانسجام والهدف الواحد.

ومما ورد في الحكم القصار من أبعاد وظيفية ثقافية للعلامة ما جاء في قوله (عليه السلام): ((قُرِنَتْ الهَيْبَةُ بِالْحَيِّبَةِ، وَالْحَيَاءُ بِالْحَرَمَانِ، وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، فَانْتَهَرُوا فُرْصَ الْخَيْرِ)).^(٢٢)

فقد اتسمت هذه الحكمة بحث الإنسان على اغتنام الفرص؛ لأنَّها سريعة الزوال، إذ جعل الإمام (عليه السلام) من سمة الحيبة ملازمة للفظه (الهيبة) وكذلك (الحرمان) سمة ملازمة للحياء، وجعل كلاً منها مانعاً يكبل الإنسان من الوصول الى مراده، فالقارئ للنص يجد أنَّ الإمام جعل من تراتبية الألفاظ (الهيبة، الحياء، الحرمان) موانع سببية تعمل على الضياع من تحقيق الهدف المنشود.

فهذه الألفاظ بترابيتها داخل النص مهدت إلى تشكيل علامة ذات وظيفة ثقافية تمثلت بقوله: (الفرصة تمر مرّ السحاب فانتهزوا فرص الخير) وقد تحققت سمة الثقافة في هذا المرور؛ لأنّ مفهومها واضح في ثقافة الجميع على مرّ الأزمان، وهذا الوضوح حقق لدى المتلقي انفتاحاً دلالياً غير محدد بزمن.

ولأجل تقريب المعنى من القارئ والمساهمة في مدّه بكم معرفي مستمدّ من روافد الطبيعة واشج الإمام (عليه السلام) بين الواقع المعنوي المتمثل بـ(الفرص) والواقع المادي المتمثل بـ(مر السحاب) فقد ولّد ثقافة ملحوظة في الفضاء المفتوح ذات محور عمودي، إذ يمكن أن نعدّ الفضاء المفتوح للثقافة بمثابة تعبير عن الإمكانيات الإيجابية للإنسان المنفتح على التجدد في التخطيط لحياته، وكذلك معرفة الارتباطات الثقافية المتطورة عن طريق القدرات العقلية المتنامية لدى الجماعة.

وثمة مصداق آخر للوظيفة الثقافية في الحكم القصار قال (عليه السلام): ((تَوَقَّوا الْبَرْدَ فِي أَوَّلِهِ، وَتَلَقَّوهُ فِي آخِرِهِ، فَإِنَّهُ يَفْعَلُ فِي الْأَبْدَانِ كِفْعَلِهِ فِي الْأَشْجَارِ، أَوَّلُهُ يُجْرَقُ وَآخِرُهُ يُورَقُ)) (٢٣).

تعد هذه الحكمة من النصائح الصحيّة التي تقي الإنسان من الأمراض، فقد نصّح (عليه السلام) بالوقاية من البرد في أوله؛ لأنّ جسم الإنسان يتكيّف تبعاً للظروف المناخية وأحوالها من برد وحرارة واعتدال، وهذا شأن كل جسم حي نباتاً كان أم حيواناً، فقد اتكأ (عليه السلام) على مظاهر الطبيعة وما يدور في الكون من تقلبات مناخية، وجعلها ثقافة عامة أراد إيصالها إلى المتلقي؛ لأنّ اللجوء إلى المظاهر الطبيعية والاستشهاد بها، يُفضي إلى السرعة في إيصال المعلومة للذهن البشري.

فطبيعة الإنسان داخل الكون تتحرك ضمن علاقة حيوية ترفض الانعزال والانغلاق والأحادية، ومن ثمّ فإنّ علاقته بالمجال الحيوي للطبيعة هي علاقات تفاعلية وتواصلية ذات فضاء مفتوح، فلا يمكن له أن يعزل عنه ثقافياً (٢٤).

وبناءً على ذلك نقول: إنَّ الانفتاح على الطبيعة ومظاهرها يُعد مظهراً من المظاهر الثقافية ذات الفضاء المفتوح، وعليه فإنَّ قوله (عليه السلام) (أوله يحرق وآخره يورق) جسّد علامة أسهمت في استحضر المكنونات الثقافية للطبيعة الكونية وبرّزتها لدى المتلقي.

المطلب الثاني: الوظيفة الثقافية بلحاظ الفضاء المغلق.

تتموضع العلامات بوظائف ثقافية ضمن هذا الفضاء عبر عدسة الثقافة نفسها، أي من الداخل وهنا تبدو العلامة الثقافية في ((منطقة محددة تُقابلها وقائع أخرى تنتمي إلى التاريخ والتجربة والنشاط الإنساني الذي يقع خارج تلك المنطقة))^(٢٥).

وبذلك فالفضاء المغلق للثقافة يقوم بذاته ولا يحتاج إلى غيره، فهو نظام وغيره لا نظام^(٢٦). مثلاً شعيرة الحج التي يؤديها المسلمون من كافة أنحاء العالم، وبمختلف أصنافهم وقومياتهم، تشكل لدى الجميع ثقافة ضمن نظام واحد ألا وهو الطواف حول الكعبة، بيد أن غيرها من الشعائر والطقوس تعد لا ثقافة في قبالها.

ونجد مثال ذلك في كتب الإمام (عليه السلام) ما جاء في وصيته لمعقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام، إذ قال (عليه السلام): ((اتَّقِ اللَّهَ الَّذِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ، وَلَا مُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ، وَلَا تَقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ، وَسِرِّ الْبَرْدَيْنِ، عَوَّرَ بِالنَّاسِ، وَرَفَّهَ فِي السَّيْرِ))^(٢٧) فمن عادة الجيوش في بعض الأحيان قطع المسافات الطويلة، حتى تتمكن من الوصول إلى الهدف المنشود، فأوقات المسير ثقافة عامة لدى الجميع، بيد أنها تختلف من إنسان إلى آخر، ولما حددها الإمام (عليه السلام) بأوقات معينة متمثلة بقوله: (البردين)، فإنها شكلت نظاماً داخلياً لفضاء مغلق تشترك به ثقافة العسكريين من دون غيرهم من الناس.

فقوله (سر البردين) دالٌّ، مدلوله: المسير في أوقات الغداة والعشي، واجتماع هذين الركنين شكل علامة أدت وظيفة ذات بعد ثقافي بين شخصين يجمعهما نظامٌ واحدٌ، ألا وهو النظام العسكري. فمجرد الإشارة التي أطلقها المرسل (الإمام) إلى المرسل إليه (معقل بن قيس) بالمسير في الجيش في هذا الوقت تحديداً، فقد فهمها من دون البحث عن أسبابها، فتبلور لديه سبب المسير في هذين الوقتين، وهذه المعرفة المحددة بين طرفي الخطاب أسهمت في تكوين وظيفة ثقافية ذات فضاء مغلق.

ومن هنا فالقارئ يستطيع تحديد الفضاء الثقافي داخل النص من خلال السياق النصي نفسه^(٢٨)؛ لأنَّ الفضاء الذي يتحرك فيه النص مرتبط بلغة وبنية خطابه الثقافي الذي يحمّله بشكله المعرفي، وبهذا تكون نسبة المقاربة محتومة في فضاء الخطاب وحركيته.

ومن وصية له (عليه السلام) لعسكره قبل لقاء العدوِّ بصفتين جاء فيها ((لَا تَهَيِّجُوا النِّسَاءَ بِأَذَى، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَبْنَ أَمْرَاءَكُمْ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقَوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ، إِنْ كُنَّا لِنُؤَمِّرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لُمُشْرِكَاتٌ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيَتَنَاوَلَ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ أَوْ الْهَرَاوَةِ فَيَعَيِّرُ بِهَا وَعَقِبَهُ مِنْ بَعْدِهِ))^(٢٩).

في هذا السياق نهى الإمام (عليه السلام) العسكر من التعرض للنساء بأي نوع من أنواع الأذى، وعدم تهيج مشاعرهن؛ لأنهنَّ لا يستطعن دفع الأذى عن أنفسهن إلاَّ باللسان، فأشار (عليه السلام) إلى ظاهرة كانت موجودة في العصر الجاهلي ألا وهي ضرب النساء ومعاملتهن بقسوة من المجتمع آنذاك.

إنَّ تشخيص الإمام (عليه السلام) لهذه الظاهرة، مثل علامة تجسدت في النص متمثلة بقوله: (وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفهر أو الهراوة) فهذا النص هو الدال ومدلوله: الضرب المبرح للنساء بقسوة وعنْف، فالإمام أراد من ذكر هذه الظاهرة تصوير تلك الثقافة المتخلفة التي لا تنسجم مع مبادئ الإسلام وضوابطه، فضلاً عن كونها غير لائقة ومعيبة ويعيِّر صاحبها وعقبه بها؛ وهي مرفوضة في الجاهلية فكيف تكون في الإسلام!!؟؟

ومن جنس البعد الثقافي المغلق للعلامة في الحكم القصار قوله (عليه السلام): ((أَلَّةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ))^(٣٠).

تعد هذه الحكمة بمثابة ومضه فكرية موجزة، بيد أنَّها تحمل معاني متعددة تؤسس للمنظومة الرئاسية المتكاملة، سواء أكانت حقاً إلهياً كرئاسة الأنبياء والأئمة (عليهم السلام)، أم حقاً بشرياً يتم بالأطر الديمقراطية أو بالتسلط والديكتاتورية.

فكل هذه الأنواع من الرئاسات تحتاج إلى سعة صدر الرئيس أو الحاكم؛ لكي يتمكن من إدارة الدولة بنجاح وتفوق، وتحقيق مطالب الرعية وتلبية احتياجاتهم، فالرئاسة ميدان لكل المتنافسين، ومن ثمَّ فهي سبب لبروز المنازعات والحروب والمعارضات الدينية والفكرية، فلا بدَّ من احتوائها وتحملها، ووضع الأسس الصحيحة في الدفاع عنها بما هو أصح وأنفع، من صلح تارة وحرب تارة أخرى، والتباين في استعمال القوة في بعض المواقف المطلوبة، واللين والسياسة في المواقف التي تقتضيها المصلحة العامة، ولا بدَّ من بذل الأموال وتحمل الأعباء، ولكل هذه الأمور والمقتضيات العامة، تحتاج الرئاسة إلى سعة الصدر، فمن لا يمتلك هذه المؤهلات والصفات لا يمكن له الاستمرار والنجاح في إدارته^(٣١).

فالنص بمجمله شكل لنا علامة أدت بعداً وظيفياً ثقافياً ذا فضاء مغلق؛ لأنَّ ليس بإمكان الرؤساء الذين يتولون السلطة أن يتحلوا بهذه السمة، إذ اقتصر على مجموعة معينة من دون غيرهم من الناس، ألا وهم (الأنبياء وأئمة أهل البيت عليهم السلام) فكانوا ميداناً رحباً لكل الناس، فضلاً عن ذلك، امتلاكهم المقومات النفسية والاستراتيجية في إدارة الدولة؛ لذا أفصح الإمام بهذه الحكمة لتكون منطلقاً لكل من يتزعم الرئاسة وبذلك يتوجب عليه أن يكون صدره واسعاً. ومن ذلك أيضاً قوله (عليه السلام): ((الصَّدَقَةُ دَوَاءٌ مُنْجِحٌ، وَأَعْمَالُ الْعِبَادِ فِي عَاجِلِهِمْ، نُصَبُ أَعْيُنُهُمْ فِي آجِلِهِمْ))^(٣٢).

تعد الصَّدَقَةُ من الموارد الاقتصادية في الدولة الإسلامية، إذ تسهم في تحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، وكذلك تعمل على تقوية الأواصر المجتمعية، فهي حقٌّ للفقراء في أموال الأغنياء، وقد أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣٣).

وبهذا تعد الصدقة من المفاهيم الثقافية داخل المجتمع الإسلامي دون سواه، وتأسياً على ذلك فقولهِ (عليه السلام): (الصدقة دواء منجح) شكل لنا علامة ذات فضاء ثقافي مغلق؛ لأنه ليس كل الناس تتصدق، بل هي تتموضع داخل مجتمع محدد (المجتمع الإسلامي)، وزيادة على ذلك ليس كل من يتصدق يكون عمله خالصاً وبعيداً عن الرياء، فلا يستشعر بالصدقة إنها دواء ناجح إلا من كانت نيته خالصة لوجه الله تعالى.

وعليه تكون هذه الثقافة ضمن إطار الفضاء المغلق الذي يحدد المتقين من دون غيرهم من هم يراؤون للناس.

الخاتمة

وفي ختام هذه الرحلة المضيئة مع هذا الكنز العلوي توصل البحث إلى النتائج الآتية:

- تبين أن العلامات الثقافية تتجسد في صورتين إحداهما لغوية والأخرى غير لغوية وتتمثل بطرائق متعددة فمرة تكون عبر التسنين والفهم المشترك بين المرسل والمتلقي وأخرى تنبثق من الواقع الاجتماعي، فنصوص الإمام عليه السلام جاءت بعلامات ثقافية تبلورت من الفكر الإسلامي الرصين وعملت على ضمان سلامة الموقف العلوي تجاه الأمة .

- يعد التسنين من أهم الوسائل المساعدة في فهم العلامة الثقافية إذ يعمل على إيقاظ فكر المتلقي لفهم الدلالة التي تحويها العلامة وسرعة الوصول إليها .

- العلامة الثقافية لم تقتصر على شيء معين بل أتمها توجد في كل المجالات التي تحقق التفاهم والتواصل بين طرفي الخطاب سواء كانت اجتماعية، اقتصادية .. الخ.

- تناز العلامات الثقافية بالقدرة على توليد الفهم المعرفي لدى المتلقي في تشخيص المعطيات الموضوعية وتحققها داخل الظاهرة المدروسة .

- تشكل الثقافة نموذجاً تواصلياً للمعرفة البشرية فقد زواج الإمام عليه السلام بين المظاهر الثقافية وأنظمة العلامات وجعلها دليلاً لفهم الواقع .

هوامش البحث

- ١- ينظر: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، دنيس كوش، ترجمة: د. منير السعيداني: ٨-٩.
- ٢- ينظر: المنهج السيميائي اتجاهاته وخصائصه، الاستاذ علي زغينة، جامعة خيضر بسكرة، ضمن أعمال الملتقى الوطني الثقافي (السيميائية والنص الأدبي)، الجزائر: ٢٦٧.
- ٣- الدراسات الثقافية، زيود ينسار، بورين فان لور، ترجمة: وفاء عبد القادر: ٨.
- ٤- ينظر: العلامة تحليل المفهوم وتاريخه، أمبرتو إيكو، ترجمة: د أحمد الصمعي: ١٧٧.
- ٥- السيميائية بين الرؤية والاجرائية، محمد أسامة العبد، مجلة المعرفة، ع٥٢٨ السنة ٤٦، أيلول، ٢٠٠٧، سوريا: ١٦٤.
- ٦- ينظر: الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي، غريب اسكندر: ٦٣-٦٤.
- ٧- العلامة تحليل المفهوم وتاريخه، أمبرتو إيكو، ترجمة: د أحمد الصمعي:
- ٨- ينظر: علم العلامات، بول كوبلي وليستا جانز، ترجمة: جمال الجزيري: ١٤٣.
- ٩- ينظر: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش: ١١٨.
- ١٠- ينظر: مملكة النص التحليل السيميائي للنقد البلاغي، د. محمد سالم سعد الله: ٢٢.
- ١١- السيميائية العامة وسيميائية الأدب، عبد الواحد المرابط: ٧٦.
- ١٢- ينظر: المصدر نفسه: ٧٦-٧٧.
- ١٣- ينظر: الأنظمة السيميائية دراسة في السرد العربي القديم، د. هيثم سرحان: ٦٠.
- ١٤- ينظر: مدرسة تارتو- موسكو، يوري لوتمان، مجلة عالم الفكر، ع٣٣، مج ٣٥، يناير - مارس، ٢٠٠٧: ١٨٧.
- ١٥- ينظر: حول الآلية السيموطيقية للثقافة، يوري لوتمان وبورس أوسبنكي، ترجمة: عبد المنعم تليمة، ضمن كتاب أنظمة العلامات في اللغة والادب، بإشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد: ٢٩٥-٢٩٦. سيميائيات المحكي المترابط، عبد القادر فهم شيباني: ٩٢.
- ١٦- نهج البلاغة: ٢/١٥٣، ك: ١٨.
- ١٧- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، الخوئي: ١٨ / ٣١٧.
- ١٨- نهج البلاغة: ٢/١٧٤، ك: ٢٨.
- ١٩- ديوان الهدليين: ١ / ٢١.
- ٢٠- نهج البلاغة: ٢/٢٣٩، ك: ٥٢.
- ٢١- ينظر: شرح نهج البلاغة، البحراني: ٥ / ١٣٣.
- ٢٢- نهج البلاغة: ٢/٣١١، ح: ٢١.

- ٢٣- المصدر نفسه: ٢/ ٣٣٥، ح: ١٢٤.
- ٢٤- ينظر: سيمياء الكون، يوري لوتمان، ترجمة: د. عبد المجيد النوسي: ١٦-١٩.
- ٢٥- مدرسة (تارتو- موسكو) يوري لوتمان، مجلة عالم الفكر، ع ٣، مج ٣٥، يناير - مارس، ٢٠٠٧: ١٨٧. ينظر: من النص إلى النص المترابط مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي، سعيد يقطين: ١١٨-١١٩.
- ٢٦- ينظر: نظرية النقد الأدبي الحديث، د. يوسف نور عوض: ٥٢-٥٣. السيمياء العامة و سيمياء الأدب من أجل تصور شامل، عبد الواحد المرابط: ٧٥، حدود التأويل قراءة في مشروع أمبرتو إيكو النقدي، وحيد بن بو عزيز: ٢٤-٢٥.
- ٢٧- ينظر: نهج البلاغة: ٢/ ١٤٥، و: ١١.
- ٢٨- ينظر: علم النص، جوليا كرستيفا، ترجمة: فريد الزاهي: ٢١، زمن النص، د. جمال الدين الخضور: ٦٥.
- ٢٩- نهج البلاغة: ٢/ ١٤٨، و: ١٤.
- ٣٠- نهج البلاغة: ٢/ ٣٤٩، ح: ١٧٨.
- ٣١- ينظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، الخوئي: ٢١/ ٢٥٣.
- ٣٢- نهج البلاغة: ٢/ ٣٠٨، ح: ٧.
- ٣٣- سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

قائمة المصادر والمراجع

- خير ما نبتدئ به القرآن الكريم
١. الإنجاه السيميائي في نقد الشعر العربي،
غريب اسكندر، دار الشؤون الثقافية العامة،
بغداد، ٢٠٠٩م.
٢. الأنظمة السيميائية دراسة في السرد
العربي القديم، د. هيثم سرحان، دار الكتب
الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م.
٣. أنظمة العلامات في اللغة والأدب
والثقافة، مدخل إلى السيميوطيقا (مقالات
مترجمة ودراسات)، إشراف: سيزاقاسم، ناصر
حامد أبو زيد، دار العالم العربي، القاهرة، مصر.
٤. حدود التأويل قراءة في مشروع أمبرتو
إيكو النقدي، وحيد بن بو عزيز، منشورات
الاختلاف، الجزائر، ١، ٢٩، ١٤٢٩-٢٠٠٨م.
٥. الدراسات الثقافية، زيود ينسار دار،
بورين فان لور، ترجمة: وفاء عبد القادر،
المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٦. ديوان الهدلين، دار الكتب المصرية،
القاهرة، ١، ١٩٩٥م.
٧. زمن النص، د. جمال الدين الخضور، دار الحصاد
للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ١، ١٩٩٥م.
٨. السيميائية العامة وسيميائية الأدب من
أجل تصور شامل، د. عبد الواحد المرابط،
الدار العربية للعلوم، بيروت، منشورات
الاختلاف، الجزائر، ١، ٢٠١٠م.
٩. سيميائية الكون، يوري لوتمان، ترجمة:
د. عبد المجيد النوسي، المركز الثقافي العربي،
الدار البيضاء، المغرب، ١، ٢٠١٤م.
١٠. شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني
(كمال الدين ميثم بن علي ت ٥٦٧٩هـ)، منشورات
مكتبة الإسلام، قم، إيران، ١، ١٣٦٢هـ.
١١. العلامة تحليل المفهوم وتاريخه، أمبرتو إيكو،
ترجمة: د. أحمد الصمعي، بيروت، ١، ٢٠٠٥م.
١٢. علم العلامات، بول كويلي وليتساجانز،
ترجمة: جمال الجزيري، مطبوعات المجلس
الأعلى للثقافة، القاهرة، ١، ٢٠٠٥م.
١٣. علم النص، جوليا كرسيفا، ترجمة:
فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء
المغرب، ٢، ١٩٩٧م.
١٤. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة،
سعيد علوش، الدار البيضاء، المغرب، بيروت،
لبنان، ١، ١٩٨٥م.
١٥. مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية،
دنيس كوش، ترجمة: منير السعيداني، الحمراء،
بيروت، لبنان، ١، ٢٠٠٧م.
١٦. منهج البراعة في شرح نهج البلاغة
، الخوئي (حبيب الله الهاشمي ت ١٣٢٤هـ)،
منشورات دار الهجرة، المطبعة الإسلامية
، طهران - إيران، ٤، د. ت.
١٧. نظرية النقد الأدبي الحديث، د. يوسف
نور عوض، دار الأمين للنشر والتوزيع،
القاهرة، ١، ١٩٩٤م.
١٨. نهج البلاغة، وهو ما جمعه الشريف
الرضي من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
(عليه السلام)، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم،
دار الجبل، بيروت، ١، ١٩٨٨م.